التأثير النحوي في العقيدة والشريعة الإسلامية

د. أحمد علي علي لقم

لاح لي وميض من خلال دراستي للنحو العربي وأثره في العلوم أن أقف على سر كمال البيان فيها عن غيرها من بعض أسراره في التأثير فيها ، وبينما كنتُ أواصلُ السبحَ في هذا البحث ، وأدير له القَدح ، وأعيدُ وأبدئ فيه النظرَ قُدِّرَ لي أن أصل إلى بعض الأمور التي تفيد في الوقوف على ذلك الأمر فأعدتُ الكرةَ مرات ومرات حتى غدت لي قوة ثاوية في داخلي تفيضُ وتغدُو وَلُوداً خِصْبةً أن أُلمِّم شتات هذه الأشياء وأن أجمع بينها حتى تبدو في ثوب قشيب.

فإن للنحو دورا خاصا في تأصيل المعنى في كثير من العلوم التي اعتمدت العربية أداتها ، ومن أهمها العلوم العقدية والشرعية ، انطلاقا من دراسة القواعد اللغوية، ومعرفة أثرها في الإفصاح عن معاني العديد من آي الذكر الحكيم ، في ومحاولة لفهم النص واستيعاب رسالته، وما يندرج في ذلك من المسائل الفقهية والعقدية ، المستنبطة من الآيات القرآنية. وقد كان لاختلاف الإعراب وفهم التراكيب وأثر العامل والوقوف على العلة النحوية دور بارز في حصر معاني الألفاظ التي تبنى عليها الأحكام وتحديدها، ولا شك في أن النظر الصحيح في اللغة العربية يساعد على فهم أكثر العلوم.

ولعل كثيرا من الاختلافات في أحكام الفروع الفقهية ، وبعض توجيهات الآيات القرآنية قائم على أساس نحوي ، مما يدعونا إلى الرجوع إلى اللغة وفنونها والانطلاق منها لإصدار الحكم الشرعي.

وسوف نتناول في هذا البحث الأثر النحوي في المفهومين العقدي والفقهي على النحو التالي:-

المبحث الأول: التأثير النحوي في المفهوم العقدي ويشتمل على مسائل مدرجة ترجع إلى الأبنية والأدوات والعلة والعامل والإعراب والتراكيب.

التوحيد أصل الإسلام ، ويقوم على فهم توحيد الألوهية والربوبية والصفات وهو أول دعوة الرسل ، وأول منازل الطريق ، وأول مقام يقوم فيه السالك إلى الله عز وجل، فأول واجب يجب على المكلف شهادة أن لا إله إلا الله.

ولكل من أركان التوحيد الثلاث مفهومه الخاص ، فتوحيد الربوبية تقتضي فهم أن الله وحده خالق كل شيء، وتوحيد الألوهية هو استحقاقه لأن يعبد وحده لا شريك له، وتوحيد الصفات هو إثبات ما وصف الله به نفسه ، والقرآن مملوء بتقرير هذه الفروع من التوحيد وبيانها وضرب الأمثال لها ، وقد تضمنت آيات الذكر الحكيم في مواطن كثيرة ومتنوعة أنه لا خالق إلا الله ، وبينت لزوم عبادته وحده وأكدت صفاته باستخدامات لغوية متنوعة.

والعقيدة هي الأمور التي يجب أن يصدق بها القلب وتطمئن إليها النفس حتى تكون يقينا ثابتا لا يمازجها ريب، ولا يخالطها شك، أي: الإيمان الجازم الذي لا يتطرق إليه شك لدى معتقده ، ويجب أن يكون مطابقا للواقع، لا يقبل شكًا ولا ظنا فإن لم يصل العلم إلى درجة اليقين الجازم لا يسمى عقيدة.

ويتناول هذا المبحث دور النحو في توضيح عقيدة التوحيد، والتدليل عليها من لغة التنزيل من حيث بيان أثر دلالة البنية والحرف والحركة الإعرابية والعامل في التراكيب في إبراز المعنى وتأويله.ويهدف إلى بيان كيف وفق النحاة والمفسرون بين ثوابت العقيدة ، والفهم النحوي في تعاملهم مع الآيات التي تضمنت معنى من معاني التوحيد نصا أو أشارت إليه.

فمن مسائل الإعراب التي كان للحركة الإعرابية فيها أثر واضح في تقرير المعنى ، وقد تناولها العلماء قديما وعلقوا عليها بتعليقات وافية ما ورد في قوله تعالى: (أن الله بريء من المشركين ورسولُه)١ إذ إن الحركة الإعرابية جاءت فيصلا بين الإيمان

والكفر٢ ولأن في جره فساد للمعنى.

وفي قوله تعالى (وكلٌّ شيء فعلوه في الزبر)٣ قالوا: لا يصح نصب (كل) لأن تقدير تسليط الفعل عليها إنما يكون على حسب ا لمعنى المراد، وليس المقصود أنهم فعلوا كل شيء في الزبر حتى يصح إعمال" فعلوا"على" كل شيء "، والمعنى المقصود ههنا أن كل شيء مفعول لهم ثابت في الزبر ، لذا رفع "كل"، واجب على أنها "مبتدأ"، وصفته الفعل المتأخر أو شيء و"في الزبر" خبر "كل".٤

ومن أوضح الأمثلة على اقتضاء المعنى للحركة الإعرابية من خلال دلالة السياق قوله تعالى: (ومن الناس والدواب والأنعام مختلفا ألوانه كذلك إنما يخش الله من عباده العلماءُ)٥ فالمعنى نفسه يفرض رفع العلماء فاعلا ، ونصب اسم الجلالة مفعولا ، لأن المراد حصر الخوف من الله في العلماء ، لا حصر الخوف من العلماء في الله ، "فإنما يخشى الله حقَّ الخشية العلماء العارفون بعظمته وجلاله. (ونُقلَ هذا الوجه المتواتر في قراءة الآية بمراعاة حركات الإعراب مشافهة وتلقيا متواترا ، وهو الذي حمل القراء والعلماء على الحكم بشذوذ القراءة التي فيها رفع اسم الجلالة على أنه فاعل ونصب العلماء على أنهم مفعول الفعل (يخشى)٦.

ومن مسائل الأدوات المشتملة على العلة والعامل والتركيب (دلالة أو) في قوله تعالى: (قل ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيّما تدعوا فله الأسماء الحسنى)٧ جاء في معاني القر آن: لما سمعت العرب ذكر الرحمن قالت: أتدعونا إلى اثنين إلى الله وإلى الرحمن، واسم الرحمن في الكتب الأُولِ المنزلة على الأنبياء ، فأعلمهم اللهَ أن دعاءهم الرحمن ودعاءهم الله يرجعان إلى شيء واحد ، فقال: "أياما تدعوًا فله الأسماء الحسنى" المعنى: أ يّ أسماء الله تدعوا" فله الأسماء الحسنى"٨ وفي تفسير ابن كثير "يقول الله تعالى : "قل يا محمد لهؤلاء المشركين المنكرين صفة الرحمة لله عز وجل المانعين تسميته بالرحمن "ادعوا الله أو ادعوا الرحمن أيا ما تدعوا فله الأسماء الحسنى" أي لا فرق بين دعائكم له باسم الله أو باسم الرحمن، فإنه ذو الأسماء الحسنى.٩ وموطن الشاهد اختلاف العلماء في معنى "أو"الواردة في الآية ، إذ إنها تستعمل للتخيير بين ذاتين أو ذوات ، وإجراء الآية على ظاهر معناها عند بعض العلماء يوقع في الشرك ، إلا إذا قُدر محذوف ، وهو الضمير بعد "ادعوا" أي "ادعوه"، أو يكون معنى "ادعوا "سموا .١٠

وأشار الزمخشري عند تناوله لهذه الآية إلى أن الضمير الوارد في قوله تعالى "فله" عائد على المسمى وليس لأحد من المذكورين) الله، الرحمن)١١ والمعنى واضح من هذه الآية ، إذ إن المطلوب أن ندعو باسم من أسماء الله الحسنى "الله الرحمن الرحيم " فهي كلها أسماء لم سمى واحد وذات واحدة ، ولا مبرر لهذا التحرز في تفسير معنى "أو"الواردة في الآية ، بل إنها جاءت على سبيل السعة في الاستخدام ،أو التوسع في استخدام مسميات لذات واحدة ولا شك أنه لا لبس في عود الضمير على المسمى وهو الله الرب المتصف بكل الصفات التي في أسمائه الحسنى.١٢

ويتضح أثر دلالة الأبنية والتركيب في الفهم العقدي ما يتضح في تقسيم في الوقف والابتداء والعطف ما ذكروه في قوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الأرض).١٣

يقول الزجاج "في موصولة في المعنى بما يدل عليه اسم الله ، والمعنى هو الخالق العالم بما يصلح به أمر السماء و الأرض، وهو المتفرد بالتدبير في السموات والأرض....ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ، كأنه قيل إنه هو الله وهو في السموات ومثل هذا القول الأول (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله)١٤ ويجوز أن يكون : وهو الله في السموات وفي الأرض ، أي هو المعبود فيهما.١٥ ويقول القرطبي (وهو الذي في السماء إله وفي الأرض إله) يقال: ما عامل الإعراب في الظرف من " في السموات والأرض "؟ ففيه أجوبه : أحدها أي وهو الله المعظم أو المعبود في السموات وفي الأرض كما تقول : زيد الخليفة في الشرق والغرب، أي حكمه. ويجوز أن يكون المعنى وهو الله المنفرد في التدبير في السموات وفي الأرض، كما تقول : هو في حاجات الناس وفي الصلاة ، ويجوز أن يكون خبرا بعد خبر ويكون المعنى : وهو الله في السموات وهو في الأرض .وقيل المعنى وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض فلا يخفى عليه